رحلات الشيخ الطيب المهاجي
من خلال كتابه: "أنفس الذخائر وأطيب المآثر في أهم ما اتفق لي في الماضي والحاضر"

د.محمد لعباسي
كلية العلوم الانسانية والعلوم الاسلامية
جامعة وهران 1

تمهيد:

تزخر الجزائر عبر عصورها التاريخية المختلفة، بأسماء أولئك الذين تركوا بصماتهم على صفات هذا التاريخ، بفضل جهادهم من أجل الحرية، والعيش الكريم، بالسيف وبالقلم، ومنهم من آثار الحياة العلمية، والتفرغ لتعليم الناس، وتأليف الكتب، على السعي وراء الكسب المالي وغيره، وقائمة هذا الصنف من علماء السلف قد تطول حينما نريد احصاءهم عددا، ولكن نذكر هنا شخصية عاشت بمدينة وهران خلال الاحتلال الفرنسي للجزائر، وتركت الأثر الطيب في نفوس الناس، وهي شخصية العالم الجليل الطيب المهاجي،مركزين على تلك الرحلات التي قام بها الشيخ في حياته، وذلك من خلال كتابه المذكور أعلاه.

التعريف بشخصية الطيب المهاجي(1):

البحث عن سير العلماء في العصر الحديث، خاصة الذين عاشوا خلال فترة الاحتلال، صعب جدا، لأن المصادر غير متوفرة، وإن وجدت فهي قليلة جدا، ويبقى الأرشيف الملاذ الأخير للباحثين عن سير هؤلاء العلماء، رغم أنّهمن صنع المحتل. وللتعريف بشخصية العالمالجليل الطيب المهاجي، فقد اعتمدت على ما كتبه الأستاذ هواري ملاح(2) عنه، لسبب وحيد هو أن الباحث قد جمع المعلومات عن حياة هذا الفقيه عن طريق ابنه الحاج محمد، الذي سرد له بالتفصيل حياة والده.

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com
www.manaraa.com

هو الطيب بن المولود بن مصطفى بن الفريح، ولد في ربيع الأول سنة 1300هالموافق لسنة 1881م، بإحدى قبائل بني عامر بالغرب الجزائري، تتلمذ على أيدي العديد من العلماء، بدءا بوالده الذي قرأ عليه بعض قصار سور القرآن الكريم، كما درس رسم المصحف العثماني على أيدي الشيخ محمد بن المولود بن ابراهيم (3) المتوفي سنة 1326هـ/ 1908م، والشيخ محمد بن عبد الله اللعباني، وغيرهما كثير قد ذكرهم في كتابه: " أنفس الذخائر وأطيب المآثر في أهم ما اتفق لي في الماضي والحاضر".

وتحصل الطيب المهاجي على العديد من الإجازات من علماء جزائريين وغيرهم، منهم على سبيل المثال لا الحصر:

ـ عبد السلام بن صالح الغريسي المتوفي سنة 1320هـ/1902م، أخذ عليه كتاب " الدرر واللوامع " لابن بر في التجويد، و" تصوير الهمز من مورد الظمآن"للشريسي الشهير بالخراز.

ـ محمد بن القريح أخذ عنه " مختصر خليل" في مدة خمس سنوات، وختمه عليه أربع مرات

قام الشيخ المهاجي بالتدريس بمدرسة قرآنية بجامع الشريفية بالمدينة الجديدةبوهران ابتداء منذ حوالي سنة 1907م ، فكان يقضي يومه بهذا المسجد لإلقاء الدروس من السابعة صباحا إلى الحادية عشر، ثم من الثانية إلى الخامسة مساء، ثم الفترة الليلة، حيث كان يدرس بها النحو، والصرف، والبيان صباحا، والفقه مساء، والتفسير ليلا، حيث ختم الشيخ تفسير القرآن خلال تسع سنوات.

وواصل الطيب المهاجي مهمة التدريس بعد الاستقلال إلى أن وافته المنية ـ رحمة الله عليه ـ سنة 1968م، تاركا وراءه العديد من التلاميذ(4)، منهم على سبيل المثال لا الحصر:

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com
www.manaraa.com

. الشيخ مصطفى بن زيان،كان من أنجب تلامذة الشيخ الطيب المهاجي،أصله من مدينة سيق، تولى العديد من المناصب الدينية منها: القضاء، الفتيا بمدينة تيارت إلى أن وافته المنية سنة 1971م.

. الشيخ عبد القادر الطيب ابراهيم، أصبح مدرسا في مدرسة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بمدينة سيق، وبعد استرجاع السيادة الوطنية عُين إماما ومدرسا بالجامع الكبير بوهران.

. الشيخ عبد القادر بوجلال الذي أصبح إماما مدرسا بمسجد البدر بمدينة وهران إلى غاية تقاعده.

كما ترك الشيخ الطيب المهاجي العديد من الكتب(5)منها:

- ✓ أنفس الذخائر وأطيب المآثر
- ✓ تزويد الحاج بالمناسك المعزوة لإمام الأئمة مالك
- ✓ رسالة في مبادئ الصرف
- ✓ رسالة في علامات الإعراب
- ✓ رسالة في علم البيان
- ✓ رسالة في علم المنطق

التعريف بالكتاب:

إن كتاب" أنفس الذخائر وأطيب المآثر في أهم ما اتفق لي في الماضي والحاضر"، قد قسّمه مؤلفه إلى مقدمة وثلاث مقاصد (مباحث) وخاتمة وتذييل، فعرّف في المقدمة مصطلحات: " التراجم" و" الإثبات " و"الفهارس" و "البرامج " ورأى أن هذه المفردات " ...متقاربة المعنى، بل لا يبعد أن تكون مترادفة، وما بينها من الفرق الدقيق لا يمنع ترادفها على معنى واحد "(6)، وبعد تقديم تعريف لهذه

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com
www.manaraa.com

المصطلحات، وضرب لها أمثلة، مهّد للدخول في المقصد الأول من كتابه هذا، الذي شبيه بالتّبت(7).

وفي المقصد الأول ذكر أصل قبائل بني عامر، وما جرى لهم زمن الأمير عبد القادر، حينما نزحوا إلى المغرب الأقصى، من تقتيل وتعذيب وسبي من طرف جيش هذه الدولة، ثم عرج على مقاومة الأمير عبد القادر، وموقف سلطان عبد الرحمن منها، كما ردّ على صاحب كتاب الاستقصا حينما "...أوغل في شتم الأمير عبد القادر تلويحا، وتعريضا، وتصريحا، وبالغ في تضليل الرأي العام بالتلبيس، ومسخ الحقيقة..." (8)على انهزام الأمير عبد القادر أمام جيش المغرب الأقصى بالفتح، وذكره باسمه عبد القادر دون لفظة " الأمير"، وغيرها من العبارات التي تقلل من شأنه(9).

ثم انتقل إلى ذكر مقاومة الشيخ بوعمامة التي صادف ميلاد المؤلف مع انطلاق هذه المقاومة في ظروف صعبة، مثل الجفاف، وارتفاع أسعار الحبوب وغيرها، إضافة إلى القوانين الجائرة التي فرضتها فرنسا على الجزائريين.

وتطرق في هذا المقصد إلى مسألة الديوان عند الصوفية، وهو اجتماعات شهرية أو سنوية يلتقي فيها جماعة من العلماء المتصوفين، مع الاشارة إلى ما ألّفه أبوراس الناصري(10) في هذا الشأن، في كتابه المسمّى:" انصباب رحمة الله في انعقاد ديوان أهل الله " كما أشار المؤلف إلى بداية تعلمه على يدي والديه القرآن الكريم، وحضوره الدروس الفقهية.

أمّا المقصد الثاني من هذا الكتاب فبيّن فيه بداية تعلمه الكتابة على اللوح، والطريقة التي انتهجها معلمه في ذلك، حيث " كان المعلم يرسم في اللوح حروف هيجاء منقوطة ومشكولة بالحركات الثلاث أو السكون، وبعد رسم مسميات الحروف يلقينا أسماءها حفظا..."(11)، ثم يأمر المعلم تلاميذه بكتابة حرف، ثم يأمره بوضع حركة معينة (حركات الإعراب)، ثم يأمر بالحرف الثاني فالثالث، ويطلب منهم

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com
www.manaraa.com

قراءة الحروف الثلاثة دفعة واحدة(12)، كما قام بترجمة جملة من المشايخ، الذين تعلم على أيديهم، مثل: محمد بن قدور الأقرع، محمد المولود بن ابراهيم، محمد بن عبد الله اللعباني وغيرهم، مع بعض إجازتهم له.

كماسجّل في هذا المبحث رحلته في الجهة الغربية للوطن من أجل طلب العلم، ثم ختمه برحلته لأداء فريضة الحج، ولقائه مع العلماء ومناقشتهم في مسائل فقهية وعقائدية، ثم طلب الإجازة منهم.

أمّا المقصد الأخير من هذا الكتاب، فذكر فيه التعريف بوهران، التي اسقر بها معلما للقرآن الكريم، ثم معناة الجزائريين بعد مشاركتهم في الحربين العالميتين، كما تطرق إلى نوازل فقهية خاصة بحكم أخذة الزيادة عن الأموال، التي كانت فرنسا تأخذها عنوة من الأثرياء الجزائريين، هل هو ربا أم لا؟ والتي أفتى فيها بجواز هذه الزيادة، على اعتبار أن الأموال لم تؤخذ على أساس قرض بل بالقوة، دون رضى أصحابها(13).

وقد وصف في هذا المبحث رحلته إلى تونس، ولقائه فيها بالعلماء، وأثناء عودته، التقي بالشيخ عبد الحميد بن باديس، ثمّ تطرق إلى رحلته التي قادته إلى المغرب الأقصى، بدعوة من بعض علمائها، وما رأى من بعض العادات التي لم تعجبه، وموقفه منها.

ثم ختم المؤلف كتابه بالحديث عن الثورة التحريرية، وعن جرائم الاحتلال الفرنسي، كما خصّ ابنه الشهيد قاسم المعروف: بزدور ابراهيم، باسم " قاسم الجزائري "، فبيّن أوصافه، وأخلاقه، ومستواه العلمي، وعلاقاته المختلفة بين المثقفين في العالم.كما جعل الكلام عن النسب المهاجي في ذيل هذا التأليف، وربطه بإدريس الأكبر، الذي يصل إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

هذا الكتاب قد تكفل بنشره مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال افريقيا بجامعة وهران سنة 1425هـ/ 2004م، وهو عبارة عن مجموع الأعمال، التي تركها الشيخ الطيب المهاجي،حيث قام الأستاذ هواري ملاح .

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com
www.manaraa.com

وهو أحد الأساتذة الأعضاء البارزين في هذا المخبر. بجمع هذه الأعمال، ووقرأها وصنّفها، في كتاب" الآثار العلمية للشيخ الطيب المهاجي الجزائري"، كما تكفّل شيخنا وأستاذنا الدكتور عبد المجيد بن نعمية ـ مدير المخبر ـ بمراجعته، والتقديم له.

أهمية الكتاب:

يعتبر كتاب " أنفس الذخائر وأطيب المآثر في أهم ما اتفق لي في الماضي والحاضر"، وثيقة تاريخية مهمّة في تاريخ الجزائر المعاصر، اذ تُسجل الوضع العامل لجزائر، الذي كان سائدا خلال الاحتلال الفرنسي، ودور العلماء الجزائريين وغيرهم أثناء هذه الفترة.

ويقدم لنا هذا الكتاب ترجمة للكثير من العلماء الجزائريين الذين عاصرهم المؤلف، إضافة إلى أنواع العلوم ومختلف الفنون، التي كانت تُدرس للطلبة، من علم القراءات، والتفسير، واللغة العربية، وعلم المنطق وغيرها، كما جاء أيضافي هذا التأليف ذكر العديد من عناوين الكتب،التي كانت منتشرة في عصره، وكانتمصادر مهمة في أخذ العلم، مثل: مختصر خليل، والأجرومية وغيرهما، وبيّنت العديد من المدارس والزوايا التي كانت عامرة بطلبة العلم، وحركة العلماء داخل القطر الجزائري، خاصة في الجهة الغربية منه.

واحتوى هذا الكتاب على بعض النوازل، التي افتى فيها الشيخ الطيب المهاجي، مثل جواز أخذ الزيادة عن الأموال، التي أخذتها فرنسا من الجزائريين، حينما فرضت أخذ مبالغ مالية من بعض الأثرياء، ثمّ ارجعت لهم أموالهم وبالزيادة، فحار الجزائريون في حكم أخذ هذه الأموال الزائدة، فالشيخ اجهتد في فتواه بناء على الظروف التي كان يعيشها المواطن الجزائري، ومن خلال ما سبقن نستشف تعلق الجزائريين بدينهم، رغم كل الظروف، من جهة، والمستوى العلمي الذي وصل إليه العلماء الجزائريون من جهة أخرى.

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com
www.manaraa.com

وتظهر مكانة العلماء الجزائريين عند غيرهم في الفتوى على النوازل، وفي المناقشات العلمية، التي كانت بينهم وبين بقية العلماء، مثل ما كان الحال مع الطيب المهاجي حينما كان يلتقي بأهل العلم في الجزائر، أو خارجها، إضافة إلى الإجازات العلمية التي كان يمنحها لطلبيها، من كل جهات البلدان العربية والإسلامية.

هذا دون أن يغفل المؤلف الكلام عن المضايقات، التي كانت تفرضها سلطات الاحتلال، على الزوايا والمدارس الحرة، منها: العمل برخصة خاصة تُمنح لبعض المعلمين، وتشترط عليهم تدريس بعض العلوم، دون الأخرى، مع إفادة من الحين لآخر مفتشين إداريين، لمراقبة مدى تطبيق التعليمات، وغيرها من الاجراءات التعسفية الأخرى، كالسجن، والقتل، والتعذيب، التي تعرض لها بعض العلماء والطلبة، وسنّ القوانين المتنوعة التي كانت تفرضها عليهم، للحد من حريتهم الدينية والثقافية، وغيرها من الأعمال الإجرامية، التي كانت فرنسا ترتكبها في حق الجزائريين.

فهذهالوثيقة تُبيّن الظروف التي كانت تحيط بالتعليم الحر، وبالعلماء في هذه الفترة، لذا يعتبر هذا الكتاب مصدرا مهما للباحثين الدارسين للحياة الثقافية في الجزائر،خلال هذه الفترة.

رحلات الشيخ الطيب المهاجي:

من خلال الاطلاع على كتاب:" أنفس الذخائر..." المذكور، يقف القارئ على أربع رحلات قام بها الشيخ الطيب المهاجي في حياته، وسجّلها في هذا التأليف، منها رحلة داخل التراب الجزائري، وكانت الغاية منها طلب العلم، بينما كانت رحلته الثانية إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج، ثم الثالثة إلى تونس، وأخيرا إلى المغرب الأقصى تلبية لدعوة من أحد أصدقائه.

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com
www.manaraa.com

1. رحلة طلب العلم:

لم يذكر المؤلف تاريخ هذه الرحلة بالضبط، بل أشار إلى سنّه حينما قال: " ...وأنا إذ ذاك قد نازهت البلوغ..."(14)، وكان هذا السفر رفقة أخيه محمد الصادق، من قريته إلى قرية المناصرة قرب بطيوة(15) بقي فيها مدة شهرين، درس خلالها الربع الثالث من القرآن الكريم، على أيدي شيخها أبي عبد الله البطوي(16)، ثم اتجه إلى قرية السلاطنة إحدى قبائل الغرابة بضواحي سيق، بالرغم من العيش الكريم لطلبة هذه المدرسة، إلاّ أنّ الطيب المهاجيلم يعجبه حال معلمها الذي قال فيه: "... ولكن المعلم بها قاصر، خال من المعارف، ليس في قدرته أن يبلغ الطالب ما يريده منه...."(17)، ثم قصد الناحية الغربية متوجها سيرا على الأقدام إلى قبيلة أولاد المزوار بعين الحد ضواحي عين تموشنت، ووصلها بعد ثلاثة أيّام، ليستقر بها مدة أربع سنوات عند الشيخ عبد السلام بن صالح الغريسي، الذي أوفد له ترجمة في هذا الكتاب، وسمّاه بشيخ القراء.

وأثناء مدة إقامته في مدرسة الشيخ عبد السلام بن صالح، ختم القرآن في اللوح مرات بقراءة نافع من رواية ورش وقالون، وقرأ علي يديه كتاب " الدرر اللوامع في التجويد " لابن عبد البر، وكتاب " تصوير الهمز من مورد الظمآن "للشريشي المعروف بالخراز،وكذلك الأجرومية، ثم أجازه بما قرأه عنه. وكان أثناء رجوعه من هذا السفر يحضر دروس الشيخ محمد بن الفريح بقرية المؤلف، وقد لازمه مدة خمس سنوات، ختم عليه المختصر عدة مرات، كما تتلمذ على الشيخ محمد بن العربي الشرفي، وقرأ عليه باب المواريث من مختصر خليل.

ثمّ حطّ المؤلف رحاله بمدينة سيق، التي جلب أهلها الشيخ محمد الكندوزالتنسي، وبقي مدة سنّة ينهل العلم من هذا العالم الذي قال فيه الطيب المهاجي:" حمل علوما غزيرة، وفنونا كثيرة...فقرأت على الشيخ محمد الكندوز

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com
www.manaraa.com

معظم مختصر خليل والأجرومية مرات، وقطر الندى لابن هشام، وألفية ابن مالك، كما قرأت عليه لامية الأفعال في الصرف، والسمرقندية في البيان، ومتن اساغوجي في المنطق.."، وكان هذا الشيخ يحدث طلبته عن شيخه المدعو الشعيبي بضواحي دائرة عين امران، وعن معارفه الكثيرة.

لقد تحفز الطيب المهاجي من كلام محمد الكندوز للسفر مجددا إلى الشيخ البوشعيبي(18)، بقبيلة الصبيح التابعة لمقاطعة تنس، ببلدية عين امران ولاية الشلف حاليا، وبالفعل فقد التحق بمدرسة هذا الأخير، بعد تكبد مشقة المشي راجلا، ثم أقام عنده مدة، تلقى منه العلوم المختلفة، فأجازه إجازة كتابية، وقد وصف الطيب المهاجي شيخه هذا:" ...العالم الكبير العلي القدير الرفيع المقام شيخ الأساتذة، وأستاذ الجهابذة الحامل لواء الزعامة العلمية بالقطر الجزائري الشيخ المولود بن الحسين البوشعيبيالتنسي ثم الجزائري، كان المقتدى به في العلوم والمعارف بين ما تراه فقيها أصوليا، تراه لغويا بليغا أديبا، جمع فأوعى، وبلغ في العلو منقولها، ومعقولها الغاية القصوى..." (19).

وبعد ذهابه إلى مدرسة الشيخ الشعيبي، يرجع المؤلف، ويذكر أنّه قد درس أيّاما قلائل على بعض العلماء الجزائريين، وغيرهم بجامع الأتراك بمدينة وهران، مثل: الحبيب بن البخاري مدرس هذا الجامع، وابن القاسم بن الطيب المعروف بابن كابو، كما قرأ مختصر الكافي في العروضعلى أحمد المصري الزموري، وعلى محمد التواتي التونسي مباديء الحساب(20).

لعلّ الدراس لهذه الرحلة التي اختصر المؤلف مسارها في صفحات قليلة، إلاّ أنّه قدّم العديد من المعطيات الثقافية التي ميّزت هذه الفترة من تاريخ الجزائر المظلم سياسيا بوجود الاحتلال، فالرقعة الجغرافية للرحلة، كانت ما بين ولاية عين تموشنت غربا، وحدود قبيلة صبيح بتنس شرقا، وإلى مدينة سيق جنوبا، وفي هذا الحيز الطبيعي كانت العديد من المدارس والزوايا منتشرة، تضيئ السماء بنور العلم، وكان مستواها يختلف من

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com
www.manaraa.com

مدرسة إلى أخرى حسب المعلم الذي يشرف عليها، ويلاحظ الباحث أيضا حركة تنقل العلماء بين الأقطار العربية، مثل تنقل محمد التواتي التونسي الذي قدم من بلاده تونس إلى عين تموشنت ودرّس مدة بطلب من أهلها، ثم مكث بوهران يعلم الطلبة، شأنه شأن بعض علماء المغرب الأقصى الذين يحطون الرحال بمدينة وهران حين سفرهم إلى تونس، أمثال: ابن شعيب الدكالي، وعبد الحي الكتاني، وأحمد البلغيثي الفاسي وغيرهم.

2. رحلته إلى البقاع المقدسة:

انطلق الطيب المهاجي في هذه الرحلة في السابع عشر ذي القعدة من سنة خمسين وثلاثمائة وألف هجرية، من ميناء وهران على متن باخرة تقل الحجاج من ميناء الدار البيضاء بالمغرب الأقصى، وميناء وهران والجزائر العاصمة وعنابة.

لقد ذكر المؤلف طريقة الحصول على رخصة السفر من إدارة المحتّل، التي لا تعتدو كونها جملة من العراقيل وضعتها فرنسا في وجه الحجاج المسلمين، إضافة إلى التضييقات التي تصاحب الحصول على الرخصة، وجود أناس ضمن الوفد كأعين للمحتل، يراقبون الحاج في حركاته وسكوناته.

كما تطرق أيضا إلى نوعية الخدمات التي تُقدم للحاج، فوصف لنا الباخرة التي كانت مخصصة لنقل البضائع والحيوانات، بدليل وجود " بقايا حبوب الحنطة في شقوق هذا المركب، وأثر أرواث البقر والأغنام، وباقي الدواب ..."(21)، هذا مع رادءة الطعام الذي يُقدم في هذه الباخرة، وكان الحجاج قد دفعوا ثمنه مسبقا.

كان مسار رحلة الطيب المهاجي من وهران ثم ميناء الجزائر ثم عنابة، وأخيرا ميناء جدة بالمملكة العربية السعودية، واستغرق خلالها مدة أربعة عشر يوما، رفقة حوالي ألف وأربعمائة حاج، وأثناءها طُلب من صاحب الرحلة أن يُقدم دروسا في مناسك الحج لرفقائه في هذه الرحلة، مع وجود العلماء من المغاربة،

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com
www.manaraa.com

الذين طلبوا منه إجازتهم، مع العلم أن الطيب المهاجي نسي أسماءهم، فلم يذكرهم عند كتابة هذا التأليف.

وفي عشية يوم الأربعاء، وبعد الغروب نهاية شهر ذي القعدة، نزل الحجاج بميناء جدة، وفي نهار يوم الغد، انطلق الوفد إلى مكة، ووصلوا إليها في اليوم نفسه، ووجدوا الظروف مهيأة لهم من سكن مريح، ومركز للإسعافات بها اطباء، وغيرها من المرافق والوسائل التي يحتاجها الحاج، ثم قام الطيب المهاجي بالطواف رفقة ثمانية عشر رجل وامرأتين.

وبقي هذا الشيخ في مكة تسعة عشر يوما، التقى خلالها بالعلماء، منهم عالم هندي سأل الطيب المهاجي عن ظاهرة الوشم في الوجوه والأيدي، والحكم الشرعي فيها، فأجابه بحرمة هذ الفعل الذي يدخل في إطار تغيير خلق الله، كما التقى بإمام المسجد الحرام الشيخ أبو السمح، وكان موضوع حديثيهما حول حكم صلاة ركتي الطواف بعد طلوع الفجر وبعد صلاة العصر.

وحضر بعض دروس في ساحة الحرم الشريف، منها جلوسه ليستمع لعالم نجدي، لم يذكر اسمه، زكان موضوع كلامه حول مسألة التوسل للخالق بالمخلوق، التي منع فيها هذا العالم التوسل على الإطلاق منعا باتا، مما لا يوافق طرح الطيب المهاجي، الذي كان له فرصة لقاء الشيخ أحمد الشريف السنوسي في زاويته، فأجازه، وأذن لهبتلقين أوراد الطريقة السنوسية المنسوبة لجده.

وفي يوم الثلاثاء العشرين من ذي الحجة عام خمسين وثلاثمائة وألف خرج الطيب المهاجي ووفده من الحجاج من مكة، متوجهين نحو المدينة المنورة في سيارات أعدت خصيصا لضيوف الرحمن، وعند وصولهم يُسأل الركاب عن السائق، وعن معاملته لهم، أأحسن أم أساء؟، لقد أُعجب المؤلف بكيفية تنظيم تنقل الحجاج من مكة إلى المدينة، ولكنه في الوقت نفسه أشار إلى بعض الظواهر المشينة في المجتمع السعودي، كوجود

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com
www.manaraa.com

قطاع الطرق وغيرها، وهنا انتقد سياسة الحكومات الخليجية، فعوضا كما قال أن تقطع يد السارق، يجب إجاد الوظائف للبطالين، من خلال " ...إقامة المعامل والمصانع الكافية لحاجيات السكان، ولم تقاوم البطالة بالمنشآت العمرانية التي تشغل اليد العاملة....، فالحجازي المسكين ...فبالطبع ينهب، ويغصب، ويسرق، ويضطر إلى سفك الدماء، فلو تحسنت حالته المادية والأدبية بالوسائل المذكورة لكانبالطبع أيضا مستغنيا عن تلك الجرائم..." (22).

وفي ليلة الجمعة الثالث والعشرين من شهر ذي الحجة، وصل المؤلف إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت إقامته بها ثمانية أيام، والتقى خلالها بالعديد من العلماء، حيث حضر دروس بعضهم، منهم العالم خليل التكروري، وأحمد الأمين بن عزوز، هذا الأخير أجازه شفويا.

وثم يختم المؤلف رحلته إلى البقاع المقدسة بكلام مختصر عن عودته إلى مدينته، فهو لم يصف لنا مسار العودة، بل اكتفى بالإشارة إلى حين وصوله إلى وهران، تواردت عليه رسائل التهاني نثرا ونظما من أصدقائه، وهذا دون يسجل هذه الرسائل في كتابه هذا، وأشار أيضا أن الدروس بمدرسته كانت تسير بانتظام تحت إشراف تلميذه جلول أبوناب الفليتي.

3. رحتله إلى تونس:

في سنة ثمان وأربعين من القرن الرابع عشر الهجري زار الطيب المهاجي تونس، وأقام بها أياما، التقى خلالها بمجموعة من العلماء منهم: الشيخ بيرم، وقاضي المالكية الشيخ الصادق النيفر، كما حضر الدروس بجامعة الزيتونة، حيث سمع مرة درسا في شرح ألفية ابن مالك، كما حضر درسا آخر في أصول الفقه، كما جلس يستمع درسا في التفسير قدّمه الشيخ ابن يوسف الحنفي، الذي قال فيه: " فحمدت الله تعالى على وجود أمثال هذا العالم النحرير في

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com
www.manaraa.com

وقتنا المظلم الذي قل فيه حامل العلم الصحيح"(23). وبعد هذا، زار المدرسة الخلدونية، والتقى بمديرها الذي رحب به، لتكون هذه المدرسة آخر محطة من زيارته لتونس، ثم امتطى قطار الليل راجعا إلى بلاده، وفي مدينة قسنطينة اغتنم المؤلف زيارة الشيخ عبد الحميد بن باديس، فذهب إلى مدرسته، فوجده يشرح درسا لطلبته، فلما رآه هذا الأخير تهيأ للقيام، وتأهب لقطع الدرس، فرفض الطيب المهاجي هذا السلوك، وأقسم عليه أن لا يقطع ما هو فيه، وبعد الفراغ من الدرس، قام ابن باديس بمصافحة ضيفه، وكانت بينهما محادثات حول رسالة محمد عبده في التوحيد وغيرها. وتعتبر محطة قسنطينة من هذه الرحلة آخر مرحلة تكلم عنها، حيث لم يصف الطيب المهاجي باقي مساره إلى غاية مدينة وهران.

4. رحلته إلى المغرب الأقصى:

وفي سنة أربع وستين وثلاثمائة وألف زار الطيب المهاجي المغرب الأقصى بدعوة من بعض أصدقائه بحاضرة فاس، التي تجول في شوارعها، ووقف على آثارها القديمة، ومساجدها العتيقة، وطاف على معاهدها العامية العامرة، ومعاملها الصناعية(24)، ووصف أزقتها الضيقة، وتجارتها المتنوعة، ومعاملة التجار الجيدة التي تستميل القلوب، وتستعطفها على الإقبال لشراء بضاعتهم.

وقد صادف هذه الزيارة إقامة مهرجان شعبي سنوي قرب ضريح ادريس الأصغر، ابن مؤسس الدولة الإدريسية، حيث يأتي الناس من كل حدب وصوب، حتى تكتظ بهم الشوارع، ثم يجتمعون حول هذا الضريح، من الضحى إلى الساعة العاشرة صباحا،"... يطبلون ويزمرون رافعين أصواتهم بألفاظ مهملة، لا يفهم لها معنى سوى قولهم يا مولاي ادريس ارض عنا واعنا وكن دائما معنا..."(25).ومن العادات التي يقوم بها الناس في هذا المهرجان، هو ذبح الثيران عند الضريح، وتتدافع الناس على دم الذبائح للتبرك بها، ثم تفرق لحومها على بيوتات أدارسة فاس.

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com
www.manaraa.com

وقد أنكر الشيخ المهاجي بعض المظاهر، التي كانت تقع في حاضرة فاس، رغم أنهاكانت تضم كما قال" كلية علمية من أكبر الكليات في العالم، وأقدمها تاريخا وأكثرها انفاقا للعلوم وأنفعها للعالم الإسلام"(26)، ولكنه استحسن عادة ختم قراءة صحيح البخاري في جامع مولاي ادريس قرب الضريح، وحضر الشيخ المهاجي هذه الجلسة، واعطيت له فرصة لإلقاء كلمة، فتكلم عن فضل ادريس الأصغر، صاحب النسب الشريف، وسرد تاريخه المليء بالمآثر الطيبة، مما أحرج الحاضرين، لأنهم ظنوا أنه يتكلم في السياسة، فبدأ بعضهم في الانصراف من المسجد، خوفا من اعتقالهم من طرف السلطة، التي تمنعهم الخوض في السياسة، مما أضطر صاحب هذه الرحلة إلى ختم خطبته(27).

كما سجّل الشيخ المهاجي في هذه الرحلة لقاءه مع أحد خطباء مساجد فاس، والنقاش الذي دار بينهما في علم الحديث، حيث أبان عن ضلوعه في هذا العلم، حيث لاحظ المهاجي أن هذا الخطيب حدّث بحديث رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أضاف كلمة مولانا للنبي صلى الله عليه وسلم، لتوقيره وتعظيمه ـ صلى الله عليه وسلم، حيث نبهه على أنه لا يجوز ذلك، لأنه ناقل عن أبي هريرة رضي الله عنه، وهذا الأخير لم يقل بهذه اللفظة، بل هي زيادة من الخطيب(28).وكانت للشيخ المهاجيفرصة زيارة مدينة مكناس ثم الرباط فبلدة سلا، ثم ختم رحلته إلى بلاد المغرب الأقصى بزيارته لمدينة وجدة، ولكنه لم يكتب عن هذه المدن الأخيرة شيئا في هذه الرحلة.

خاتمة:

رغم الاحتلال وقيوده الكثيرة التي فرضها على العلماء في الجزائر، من خلال التضييق عليهم، أو فرض عليهم وقت معين للتدريس، أو منعهم من تلقين بعض الدروس، أو فرض الإقامة الجبرية على بعضهم، فإن علماء الجزائر، ومنهم الشيخ الطيب المهاجي فقد جاهد بعلمه لتنوير الأمة، وتبديد ظلامها الداكن،

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com
www.manaraa.com

فتنقل من قرية إلى قرية، ومن مدرسة إلى مدرسة ليحفظ القرآن الكريم، ثم أصبح معلما له للناس، مصداقا لقوله ـ صلى الله عليه وسلم: " خيركم من تعلم القرآن وعلّمه "، فالشيخ المهاجي واحد من الذين جاهدوا بقلمهم، وفكرهم، لتبقى الجزائر عربية إسلامية، رغم أنف الغاصبين، ومكر الماكرين.

ومن هذه الرحلات التي قام بها الشيخ، وسجلها، يمكن استخلاص العديد من الإشارات التاريخية: منها الوضع الثقافي في الجزائر إبّان الاحتلال، خاصة في الغرب الجزائري، ودور العلماء والمدراس في الحفاظ على اللسان العربي في الجزائر، وعلى العقيدة الإسلامية النقية من شوائب الخرفات والبدع، إضافة إلى بعض من السياسة الاستعمارية التي كانت تهدف إلى التضييق على الجزائريين عامة، والعلماء خاصة، ولم يسلم منهم حتى الحجاج الذين كانت تراقبهم عن طريق مخبريها المندسين في صفوفهم.

وتصور هذه الرحلات الوضع العام في بلاد المغرب العربي خلال هذه الفترة، سواء في الجزائر، أو المغرب الأقصى أو في تونس، وكذا العلاقات الثقافية بين هذه الأقطار، التي كانت تشترك في احتلال واحد،خاصة في تحرك العلماء، وتبادل الإجازات، وغيرها من الأمور الثقافية التي تتعلق أساسا بالعلم، والتدريس، والكتب وغيرها .

الهوامش:

1. الهواري ملاح، نوازل الشيخ الطيب المهاجي من خلال أنفس الذخائر وأطيب المآثر، المجلة الجزائرية للمخطوطات، مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا، جامعة وهران1، الجزائر، العدد: 06، 2009، ص ص:239 . 241.

2. هواري ملاح: أستاذ بقسم الحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، بجامعة وهران 1أحمد بن بلة.

3 . الشيخ محمد بن المولود بن ابراهيم: كان هذا الشيخ مشهورا بمعرفته رسم القرآن الكريم على الرسم العثماني، كان الطلبة يتوافدون عليه من النواحي القريبة والبعيدة عليه،

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com
www.manaraa.com

ليتعلموا عليه الرسم القرآني، توفي رحمه الله تعالى سنة 1326هـ/ 1908م. ينظر، الهواري ملاح، الآثار العلمية للشيخ الطيب المهاجي الجزائري، تقديم ومراجعة: أ.د.بننعمية عبد المجيد، منشورات مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا، جامعة وهران، الجزائر، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر،2004، ص:49.

4 . جيلالي حورية، نشاط الشيخ الطيب المهاجي الجزائري في جمعية الفلاح الإصلاحية بوهران، مجلة عصور، مخبر البحث التاريخي مصادر وتراجم، جامعة وهران1، الجزائر، العدد: 22، جويلية، 2014، ص: 400.

5. الهواري ملاح، نوازل الشيخ الطيب المهاجي من خلال أنفس الذخائر وأطيب المآثر، ص: 242.

6الهواري ملاح، الآثار العلمية، ص:32

7. المصدر نفسه، ص: 33.

8. المصدر نفسه، ص: 43.

9. المصدر نفسه، ص: 39.

10 . أبو راس: هو محمد بن أحمد الناصري المعسكري، ولد سنة 1150 هـ– 1737م بضواحي معسكر، وتوفي سنة 1236هـ– 1820م، له عدة تأليف في عدة مواضيع خاصة التاريخ منها: زهرة الشماريخ في علم التاريخ، الدرء الشقاوة في حروب الترك مع درقاوة، لقطة العجلان في نسب يسدي عبد القادر بن زيان.... ينظر، محمد بوركبة، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار لأبي راس الناصري المعسكري (1165 . 1238هـ/ 1755 .1823م) دراسة وتحقيق، إشراف: أ.د. عبد المجيد بن نعمية، رسالة دكتوراه، قسم الحضارة الإسلامية، جامعة وهران، (1427، 1428هـ/ 2007،2008م)، ص ص: 03. 25.

11. الهواري ملاح، الآثار العلمية، ص:48.

12 . المصدر نفسه، ص: 48.

13 . ينظر، المصدر نفسه، ص: 97.

14 . المصدر نفسه، ص: 51.

15 . قرية المناصرة: قرية بأرض الغرابة بناحية سيرات الواقعة بين بلدتي سيرات وبطيوة. ينظر: زيتوني عبد الله، ديوان شعر أبي عبد الله البطيويالرزيوي، تحقيق ودراسة الجمل فيه، رسالة ماجستير، إشراف: أ.د.مختاربوعناني، قسم اللغة العربية وأدابها، جامعة وهران السانيا، 2012هـ/2013م، ص:04.

16 . أبو عبد الله البطوي: هو أبو عبد الله بن عبد القادر بن محمد البوعبدلي، ولد سنة 1285هـ/1867م، بدوار سودين ببلدية بني خلاّد، دائرة هنين ولاية تلمسان، حفظ القرآن الكريم في صغره في قريته والقرى المجاورة لها، فختم القرآن الكريم حفظا على أيدي الشيخ الفقيه مختار بوعناني، والشيخ لخضر الخبشي بالغزوات، ثم رحل طالبا للعلم إلى

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com
www.manaraa.com

المغرب الأقصى بقي بها مدة أربع سنوات، تعلّم العلوم الشرعية واللغوية، من أشهر شيوخه: قدور بن سليمان المستغانمي، محمد الحرشاويالندرومي، بن يلس التلمساني، أما من تلامذته، أذكر: محمد بن داود، الطيب المهاجي، عليش، عبد الله حكيم النجاري، وغيرهم. ومن آثاره: شرح مقصورة الحسن والبهاء عند أتباع الطريق، سمير السهران في أخبار الجزائر ووهران، الدستور الجزائري كيف يكون من الكتاب والسنة، ديوان شعر، أجوبة لغوية في النحو والصرف والبلاغة والعروض، منظومة في رسم الألف التي تكون في آخر الكلمة، تاريخ الأنبياء المطول عند أتباع الطريق، توفي ببطيوة في سنة 1372هـ/04 نوفمبر سنة 1952م. ينظر، زيتوني عبد الله، المرجع نفسه، ص ص: 6.1.

17. الهواري ملاح، الآثار العلمية، ص: 51.

18. المصدر نفسه، ص: 51.

19. المصدر نفسه، ص: 61.

20. المصدر نفسه، ص: 67.

21. المصدر نفسه، ص: 79.

22. المصدر نفسه، ص: 88.

23. المصدر نفسه، ص: 100.

24. المصدر نفسه، ص: 103.

25. المصدر نفسه، ص: 104.

26. المصدر نفسه، ص:104.

27. المصدر نفسه، ص: 105.

28. المصدر نفسه، ص: 107.

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com
www.manaraa.com

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com
www.manaraa.com